

## -6-

## الدين

بعد يومين من فوزي بترشيح الحزب الديمقراطي في سباق الكونغرس الأمريكي؛ تلقيت رسالة بالبريد الإلكتروني من دكتور يدرس في كلية الطب بجامعة شيكاغو.

كتب الدكتور يقول: «أهنئك على فوزك التمهيدي الساحق والملمهم. سررت لأنني صوت لصالحك، وأنا أفكر بصورة جدية بالتصويت لك أيضا في الانتخابات العامة. أكتب إليك لأعبر عن القلق الذي قد يمنعني في نهاية المطاف من تأييدك»

وصف الدكتور نفسه بأنه مسيحي يفهم التزاماته بوصفها شاملة وإجمالية. وقاده إيمانه إلى معارضة الإجهاض وزواج المثليين معارضة قوية، لكن قاده أيضا كما قال إلى مساءلة عبادة وثن السوق الحر واللجوء السريع إلى الحلول العسكرية للذين ميزا على ما يبدو معظم السياسة الخارجية للرئيس بوش.

السبب الذي دعا الدكتور إلى التفكير بالتصويت لمنافسي لم يكن موقفي من الإجهاض بحد ذاته. بل لأنه قرأ عبارة استهلاكية على موقعي على الويب تشير إلى أنني أحارب «المنظرين اليمينيين الذين يريدون سلب المرأة حقها في الاختيار» وأضاف قائلاً:

أستشعر وجود إحساس قوي بالعدالة لديك، والموقف المزعزع للعدالة في أي نظام سياسي، وأعرف أنك كنت صوت من لا صوت لهم. أستشعر أيضا أنك شخص نزيه وغير متحيز تقدر قيمة العقل والمنطق.. وبغض النظر عن قناعاتك، إذا اعتقدت حقا أن معارضي الإجهاض هم منظرون مدفوعون برغبات مشوهة ومنحرفة لإلحاق الأذى بالنساء، فإنك برأيي لست نزيها بل متحيزا.. تعرف أننا ندخل عصرا تحتشد فيه احتمالات الخير والشر، عصرا نكافح فيه لاستخلاص معنى منطقي من نظام

سياسي مشترك في سياق التعددية، عصرا يغيب فيه اليقين ولا نعرف  
الأرضية المؤسسة لإطلاق المزايم والدعاوي المتعلقة بالآخرين.. لا أطلب  
منك في هذه المرحلة معارضة الإجهاض، بل التحدث عن هذه القضية  
بكلمات نزيهة غير متحيزة.

بحثت في الموقع وعثرت على الكلمات المسيئة. لم تكن كلماتي؛ بل كتبها الموظفون  
الذين يعملون معي لإيجاز موقفي المؤيد لإباحة الإجهاض خلال الانتخابات التمهيدية،  
في وقت كان فيه بعض المنافسين يضعون التزامي تأييد قرار المحكمة العليا (رؤس  
ويد) الذي أعطى المرأة حقا غير مقيد بالإجهاض خلال الأشهر الثلاثة الأولى من  
الحمل موضع المسألة. وضمن شرنقة سياسة الحزب الديمقراطي، كان ذلك شعارا  
معياريًا مصمما لتهدية القاعدة الشعبية. إن فكرة إشراك الطرف الآخر في القضية  
لا معنى لها، كما تقول الحجة؛ وأي إبهام لها يعني الضعف ضمنا، وتواجه القوى  
المناهضة للإجهاض بمقاربة وحيدة الهدف ولا تعرف الرحمة، ولذلك يجب ألا تظهر  
أي ضعف.

لكن عند إعادة قراءة رسالة الدكتور، شعرت بوخزة خجل. أجل، هنالك المتزمتون  
في حركة مناهضة الإجهاض الذين لا أتعاطف معهم، الذين يحشدون أمام العيادات  
أو يمنعون النساء من دخولها، ويرفعون صور الأجنة الممزقة في وجوههم ويصرخون  
بأعلى صوتهم؛ الذين يتتمرون ويهددون ويلجؤون إلى العنف أحيانا.

لكن هؤلاء المحتجين المعارضين للإجهاض كانوا يختلفون عن الذين ظهروا  
بين الحين والآخر في اجتماعات حملتي الانتخابية الحاشدة. فقد ظهروا عادة في  
مجموعات أصغر حجما في الأماكن القصية التي زرناها في الولاية، وقد ارتسمت  
على وجوههم تعابير التعب والإنهاك مع الإرادة والتصميم، حيث يقفون صامتين  
متيقظين خارج أي مبنى يعقد فيه الاجتماع، رافعين اللافتات المكتوبة بخط اليد  
وكأنها دروع أمامهم. لم يلجؤوا إلى أسلوب الزعيق أو الصراخ لإرباك الاجتماعات  
وإيقاع الفوضى فيها، مع أنهم أثاروا أعصاب كادر العاملين معي. في أول مرة ظهرت  
جماعة من المحتجين، دق أفراد فريقتي الذين سبقوني إلى المكان جرس الإنذار؛ وقبل

خمس دقائق من وصولي، اتصلوا بسيارتي وطلبوا أن أندس خلسة من المدخل الخلفي كي أتجنب المواجهة.

قلت للسائق: «لا أريد الدخول من الباب الخلفي. قل لهم إننا سندخل من الباب الأمامي».

انعطفنا نحو المرأب فشهدنا سبعة أو ثمانية محتجين مصطفين على طول الحاجز: عدة نساء متقدمات في السن وعائلة على ما يبدو — رجل وامرأة وطفلان صغيران. تراجلت من السيارة وذهبت إلى المجموعة، وقدمت نفسي. صافحني الرجل مترددا وذكر اسمه. بدا أنه في مثل عمري، يرتدي سروال الجينز وقميصا ملونا وقبعة الكرادلة في سنت لويس. صافحتني زوجته لكن النساء المسنات رفضن مصافحتي. أما الطفلان (وكانا في التاسعة أو العاشرة) فقد حدقا إلي بعيون فضولية.

سألت: «أتريدون الدخول إلى المبنى؟».

قال الرجل: «لا شكرا» وناولني كراسا. ثم أضاف: «سيد أوباما، أريدك أن تعلم أنني أوافق على معظم ما ستقوله».

«أقدر ذلك».

«وأعرف أنك مسيحي، ورب أسرة».

«هذا صحيح».

«إذن، كيف تؤيد قتل الأطفال؟».

قلت له إنني أتفهم موقفه، لكنني أخالفه الرأي. وشرحت مفسرا اعتقادي أن قلة من النساء يتخذن قراراً اعتباطياً بإنهاء الحمل؛ وأن أي امرأة حامل تشعر بالقوة الكاملة للقضايا الأخلاقية المعنية وتصارع ضميرها عند اتخاذ القرار المؤلم؛ وأنتي أخشى أن يجبر حظر الإجهاض النساء على السعي إلى إجراء عمليات إجهاض غير مأمونة، مثلما فعلن في هذا البلد ذات يوم ومثلما يفعلن في البلدان الأخرى التي تعاقب الأطباء الذين يجرون العملية والنساء اللاتي يجربنها. واقترحت أن من الممكن لنا الاتفاق على طرق كفيلة بتقليص عدد النساء اللاتي يشعرن بالحاجة إلى الإجهاض أصلاً.

أصغى الرجل بتهديب ثم أشار إلى إحصائيات في الكراس تدرج عدد الأطفال في الأرحام الذين يضحى بهم كل سنة، كما قال. بعد بضع دقائق، قلت إن علي الدخول لإلقاء التحية على المؤيدين والأنصار ودعوت المجموعة مرة أخرى إلى الدخول. رفض الرجل مجدداً. وحين استدرت لأذهب، نادتي زوجته.

قالت: «سوف أصلي لأجلك. سوف أصلي لتغيير رأيك»

لم يتغير لا رأيي ولا موقفي ذلك اليوم، ولا في الأيام التالية. لكنني تذكرت تلك العائلة حين جاوبت الدكتور وشكرته على رسالته. في اليوم التالي، وزعت الرسالة الإلكترونية على الموظفين والمساعدين وطلبت تغيير المفردات المستخدمة في الموقع بأخرى تعبر بأسلوب واضح لكن بسيط عن موقفي المؤيد لإباحة الإجهاض. في تلك الليلة، قبل أن أذهب إلى السرير، تلوت صلاتي، ودعوت الله أن يساعدني على معاملة الآخرين بالنية الطيبة ذاتها التي أظهرها الدكتور نحوي.

من القضايا المسلم بها أننا، نحن الأمريكيون، شعب متدين. ووفقاً لآخر استطلاعات الرأي، تبين أن 95% من الأمريكيين يؤمنون بالله، وأكثر من الثلثين ينتمون إلى إحدى الكنائس، و37% يعدون أنفسهم مسيحيين ملتزمين دينهم، وعدد الذين يؤمنون بالملائكة يفوق كثيراً عدد المعتقدين بالارتقاء والنشوء. ولا ينحصر الدين في أماكن العبادة فقط. فالكتب التي تزعم اقتراب نهاية الزمان تباع ملايين النسخ. والموسيقى الدينية المسيحية شائعة ومنتشرة على أوسع نطاق، ويبدو أن كنائس كبرى جديدة تظهر يومياً في ضواحي كل مدينة رئيسية، لتوفر لأتباعها كل شيء: من الرعاية النهارية إلى دروس تعلم اليوغا والرقص معاً. ورئيسنا يكرر بشكل روتيني كيف غير المسيح قلبه، ولاعبو كرة القدم يشيرون إلى السماء شكراً وحمداً بعد كل هدف يسجلونه.

ليست هذه الموجة من التدين جديدة بالطبع. فقد أتى الحجاج الآباء إلى شواطئنا هرباً من الاضطهاد الديني والممارسات الدينية، والتزموا نسختهم المنتزعة من الكالفينية\*. أما حركة الإحياء الإنجيلية فقد اكتسحت الأمة مراراً، واستخدمت

\* نسبة إلى جون كالفين (1509-1564)، اللاهوتي السويسري (الفرنسي الأصل)، الذي انشق عن الكنيسة الكاثوليكية (1533) ووضع الأركان المؤسسة لما يعرف اليوم بالكنيسة المشيخية. (م)

الدين موجات متلاحقة من المهاجرين لترسيخ حياتهم في عالم جديد غريب. وأطلقت المشاعر الدينية والنشاطية الدينية بعضاً من أقوى حركاتنا السياسية، من إلغاء الرق إلى الحقوق المدنية إلى شعبية السهوب بزعامة وليام جينغز بريان.

ومع ذلك، إذا سألت قبل خمسين سنة أبرز المعلقين الثقافيين عن مستقبل الدين في أمريكا، فسيقولون لك دون شك إنه في حالة انحسار وتراجع. الدين القديم يذبل ويذوي، كما تؤكد الحجة، ويقع ضحية للعلم، والمستويات الرفيعة من التعليم بين عامة السكان، وأعاجيب التقانة. صحيح أن المواطنين المحترمين ما يزالون يذهبون إلى الكنيسة كل أحد؛ والمبشرين الإنجيليين الذين يستشهدون بالكتاب المقدس للترغيب والترهيب، والمعالجين بالأدعية الدينية ما يزالون ينتشرون في الولايات الجنوبية؛ والخوف من «الشيوعية الملحدة» ربما ساعد في تغذية المكارثية و«الرعب الأحمر»، لكن على الأغلب عدت الممارسة الدينية التقليدية - والأصولية الدينية بالتأكيد - متناقضة مع الحداثة، وملاذا للفقراء والأميين من مشقات ومصاعب الحياة. حتى حملات بييلي غراهام الضخمة عدها الخبراء والعارفون والأكاديميون مفارقة تاريخية غريبة، أثرا بآندا من عصر سابق لا علاقة له بالعمل الجاد لإدارة الاقتصاد الحديث أو صياغة السياسة الخارجية.

بحلول الستينيات، استنتج العديد من زعماء التيار الغالب البروتستانتي والكاثوليكي أن عليهم التكيف مع العصر المتغير إذا أرادوا الإبقاء على المؤسسات الدينية في أمريكا، وذلك عبر مواءمة عقيدة الكنيسة مع العلم، والتوكيد على المبادئ المسيحية الاجتماعية التي تتناول القضايا المادية المتصلة بالظلم الاقتصادي والعنصرية والتفرقة بين الجنسين، والنزعة العسكرية الأمريكية.

ما الذي حدث؟ من ناحية، بالغ المراقبون دوماً في الاعتقاد أن الحماس الديني يهدأ ويفتر. في هذا السياق على الأقل كان لانتقاد المحافظين لـ «النخبوية الليبرالية» أساس قوي من الصحة: استقر الأكاديميون والصحفيون ومروجو الثقافة الشعبية في أمان الجامعات والمراكز الحضرية الكبرى، وفشلوا في تقدير أهمية الدور المتواصل الذي لعبته أشكال التعبير الديني كافة في المجتمع في شتى أرجاء البلاد. وفي الحقيقة،

فإن إخفاق المؤسسات الثقافية المهيمنة في الاعتراف بالدافع الديني في أمريكا ساعد في تعزيز نوع من المشروع الديني المنظم ليس له نظير يضاهيه في أي مكان من العالم الصناعي. صحيح أنه محتجب عن النظر، إلا أنه مفعم بالحيوية والنشاط في قلب البلاد وفي «حزام الإنجيل»\*، عالم مواز بازغ لا يتكون من الكهنة والقساوسة الإحيائيين والناشطين فقط، بل من محطات الإذاعة والتلفزيون والجامعات ودور النشر ووسائل الترفيه المسيحية، وكلها تتيح للمؤمنين تجاهل الثقافة الشعبية مثلما تتجاهلهم.

إحجام العديد من الإنجيليين عن دخول معترك السياسة - التركيز الداخلي على الخلاص الفردي والاستعداد لإعطاء قيصر ما لقيصر - كان سيستمر إلى ما لا نهاية لولا الاضطرابات الاجتماعية في الستينيات. ففي أذهان المسيحيين الجنوبيين، بدا قرار المحكمة الاتحادية البعيدة بإلغاء الفصل العنصري متسقا ومنسجما مع قراراتها بإلغاء الصلاة في المدارس - هجوما متعدد الشعب على ركائز الحياة الجنوبية التقليدية. وكانت الحركة النسائية، والثورة الجنسية، وتعاضم ثقة المثليين والشاذات جنسياً بالنفس، وقرار المحكمة العليا بمنح النساء الحق في الإجهاض في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، تحديا مباشرا لتعاليم الكنيسة فيما يتعلق بالزواج والجنسانية والدور الصحيح والمناسب للرجل والمرأة. ووجد المسيحيون المحافظون الذين شعروا أنهم عرضة للسخرية والهجوم أن من المتعذر عزل أنفسهم عن الاتجاهات والميول السياسية والثقافية العريضة في البلد. وعلى الرغم من أن جيمي كارتر كان أول من أدخل مفردات المسيحية الإنجيلية في قاموس السياسة الوطنية الحديثة، إلا أن الحزب الجمهوري، بتوكيده المتزايد على التراث التقليدي والنظام و«قيم العائلة»، كان في أفضل موقع لجني ثمار اليقظة الإنجيلية سياسيا وحشد الإنجيليين ضد التزمتم الليبرالي.

من الضروري هنا تكرار القصة التي تصف كيف استطاع رونالد ريغان، وجيري فالويل، وبات روبرتسون، ووالف ريد، وأخيرا كارل روف وجورج بوش، حشد وتعبئة هذا الجيش من جنود المشاة المسيحيين. يكفي القول إن المسيحيين الإنجيليين

\* منطقة ممتدة عبر الجنوب والغرب الأوسط من الولايات المتحدة حيث تهيمن الأصولية الدينية. (م)

البيض (إلى جانب الكاثوليك المحافظين) يمثلون قلب وروح القاعدة الشعبية للحزب الجمهوري - قاعدة أساسية من الأنصار والمؤيدين تحشدتها باستمرار شبكة من المنابر و منافذ وسائل الإعلام استطاعت التقانة تضخيمها. أما قضاياها - الإجهاض، زواج المثليين، الصلاة في المدارس، التصميم العاقل للكون، تيري شيافو، إيداع الوصايا العشر في المحاكم والمراكز الإدارية للمقاطعات، التدريس في المنزل، خطط القسائم التعليمية، تكوين المحكمة العليا - فهي التي تهيمن على عناوين الأخبار وتمثل واحدا من أكبر خطوط التصعد في السياسة الأمريكية. وأوسع فجوة في الارتباط الحزبي لدى الأمريكيين البيض ليست بين الرجل والمرأة، أو الذين يقيمون في الولايات الحمراء والولايات الزرقاء، لكن بين الذين يذهبون إلى الكنيسة بانتظام والذين لا يدخلونها. في هذه الأثناء، يكافح الديمقراطيون بمشقة للتعامل مع الدين، حتى إن كانت الشريحة الأساسية للناخبين المؤيدين لهم تتمسك بالتوجه العلماني بعناد، وتخشى - وهي محقة دون شك - من أن أجندة الأمة المسيحية قد لا تقسح مكانا لها أو لخياراتها الحياتية.

لكن التأثير المتزايد لليمين المسيحي لا يمثل سوى جزء من القصة. فلربما استغلت «الأغلبية الأخلاقية» و«الاتلاف المسيحي» سخط واستياء العديد من المسيحيين الإنجيليين، لكن ما هو لافت وملحوظ أكثر قدرة المسيحية الإنجيلية لا على البقاء والاستمرارية فقط، بل على الازدهار والنماء في أمريكا الحديثة المتقدمة تقانيا. وفي وقت تخسر فيه الكنائس البروتستانتية الرئيسة أعضائها بوتيرة متسارعة، تتوسع الكنائس الإنجيلية اللاطائفية وتكبر بسرعة، وتتمتع بمستويات من الولاء والمشاركة من أعضائها لا تضاهيها بها أي مؤسسة أمريكية أخرى. لقد أصبح الحماس الديني هو التيار الغالب.

هنالك تفسيرات متنوعة لهذا النجاح، تتراوح بين مهارة المبشرين الإنجيليين في ترويج وتسويق الدين وبين الشخصيات الكاريزمية الأسرة لزعمائهم. لكن نجاحهم يشير أيضا إلى طلب على المنتج الذي يبيعونه، جوع إليه يتجاوز إطار أي قضية معينة أو مسألة محددة. ففي كل يوم يبدو أن آلاف الأمريكيين الذين يمارسون حياتهم

العادية — يوصلون أبناءهم إلى المدارس، ويذهبون إلى وظائفهم، ويسافرون لحضور لقاءات العمل، ويتسوقون في مراكز التسوق، ويحاولون الحفاظ على نظامهم الغذائي — يتوصلون إلى قناعة مفادها أن شيئاً ما ينقصهم. يشعرون ويقررون أن عملهم وانشغالهم وممتلكاتهم الدنيوية وتسلياتهم ليست كافية. يريدون إحساساً بوجود هدف، تغييراً مثيراً في حياتهم، شيئاً يريحهم من العزلة المزمّنة، ويزيل عنهم تعب وإرهاق وكد الحياة اليومية. يحتاجون إلى توكيد يطمئنهم إلى وجود من يراهم ويصغي إليهم هناك في السماء — وأن مصيرهم ليس العدم.

إن امتلكتُ أي رؤية ثابتة لهذا التحرك نحو تعميق الالتزام الديني فربما يعود السبب إلى السبيل الذي اخترته.

لم أنشأ في أسرة متدينة. فمع أن جدي وجدتي لأمي اللذين قدما من كنساس عاشا طفولة متدينة: ترعرع جدي في كنف جدين مؤمنين من أتباع الكنيسة المعمدانية بعد أن هجره والده وانتحرت أمه، في حين كان والدا جدتي — اللذان احتلا مرتبة أعلى قليلاً في تراتبية مجتمع البلدات الصغيرة في حقبة الكساد الكبير (عمل والدها في مصفاة للنفط وكانت والدتها مدرسة) — من أتباع الكنيسة الميثودية.

لكن ربما للأسباب ذاتها التي دفعتهما (جدي وجدتي) لمغادرة كنساس والهجرة إلى هاواي، لم يتجذر الدين في قلوبهما أبداً. فقد كانت جدتي عنيدة في عقلانياتها إلى حد رفض قبول كل ما لا تراه رأي العين، أو تلمسه أو تعدّه أو تحسبه. أما جدي، الرجل الحالم في أسرتنا، فقد امتلك روحاً قلقة ربما وجدت ملاذاً في الإيمان الديني لولا تلك السمات والصفات — تمرد جواني، عجز كامل عن ضبط الشهوات، تسامح عريض مع أخطاء وضعف الآخرين — التي منعتّه من أخذ أي شيء على محمل الجد.

التوليفة التي شملت هذه النزعات والميول — عقلانية جدتي الصوانية، ومرح جدي وعجزه عن الحكم الصارم على نفسه أو على الآخرين — انتقلت بالوراثة إلى أمي. فتجاربها كطفلة حساسة مولعة بالقراءة، ترعرعت في البلدات الصغيرة في كنساس وأوكلاهوما وتكساس، عززت هذه الشكوكية الارتياحية. وذكرياتها عن المسيحيين

الذين عرفتهم في صباها ليست محببة. فمن حين لآخر، كانت تتذكر الدعاة والوعاظ من مدعي الفضيلة والتقوى الذين يرفضون وينكرون ثلاثة أرباع البشر بوصفهم ملاحدة جاهلين قدر عليهم قضاء الآخرة كلها في جهنم وبئس المصير - والذين يصرون على أن السماوات والأرض خلقت في سبعة أيام، على الرغم من الأدلة الجيولوجية والفيزيائية الفلكية التي تدحض ذلك. تذكرت سيدات الكنيسة المحترمات اللاتي يسارعن إلى تجنب أولئك اللذين لا يستوفون معاييرهن عن السلوك اللائق، حتى حين يجهدن لإخفاء أسرارهن القذرة؛ وآباء الكنيسة الذين يجاهرون بالنعوت العنصرية ويخدعون عمالهم ويسلبونهم آخر فلس يملكونه.

برأي والدتي، كثيرا ما يتزيا انغلاق الدين المنظم بلبوس الصلاح والتقوى، وتتستر الوحشية والقمع بعباءة الفضيلة والاستقامة.

هذا لا يعني القول إنها لم تزودني بالتعاليم الدينية. فزي ذهنها، تعد المعرفة العملية بديانات العالم الكبرى جزءا ضروريا من أي تعليم متوازن ومتطور. في بيتنا، وضع الإنجيل والقرآن وأغنية الرب (أشهر نص هندوسي مقدس) على الرف إلى جانب كتب أساطير اليونان والاسكندنافيين والأفارقة. في عيد الفصح أو عيد الميلاد، كانت أمي تجرني إلى الكنيسة، مثلما تجرني إلى المعبد البوذي، والاحتفال بعيد رأس السنة الصينية، وضريح الشنتو، والمدافن الأثرية في هاواي. لكنني دُفعت لأفهم أن مثل هذه العينات الدينية لا تتطلب التزاما مستداما من جانبي - لا مشقة التأمل الباطني ولا تعب جلد الذات. الدين تعبير عن الثقافة الإنسانية، كما كانت تشرح، لا نبعها الوحيد، واحد من الطرق - وليس أفضلها بالضرورة - التي جربها الإنسان للسيطرة على المجهول وفهم الحقائق العميقة المتعلقة بحياتنا.

باختصار، رأت والدتي الدين من منظور الأنثروبولوجيا التي ستختص بها؛ ظاهرة يجب التعامل معها باحترام مناسب، لكن بتجرد مناسب أيضاً. فضلاً عن ذلك، نادراً ما اتصلت في طفولتي مع أولئك الذين يعرضون رأياً مختلفاً اختلافاً جوهرياً للدين. غاب والدي غياباً كلياً عن طفولتي، بعد أن طلق أمي حين لم أتجاوز سنتين من العمر؛ وعلى أي حال، مع أن والدي نشأ مسلماً، إلا أنه غداً ملحداً عندما

التقى والدتي، حين اعتقد أن الدين ليس سوى خرافة، مثل شعوذات الأطباء السحرة الذين شاهدتهم في القرى الكينية في شبابه.

حين تزوجت والدتي مرة ثانية، كان زوجها إندونيسيا على القدر ذاته من الشك، رجلا يرى الدين مفيدا على نحو خاص من الناحية العملية ليشق المرء طريقه في الحياة. فقد نشأ في بلد والف بسهولة بين دينه الإسلامي وبقايا التقاليد التراثية الهندوسية والبوذية والأرواحية القديمة. وخلال السنوات الخمس التي عشناها مع زوج أمي في إندونيسيا، التحقت أولا بمدرسة كاثوليكية في الحي، ثم بمدرسة إسلامية؛ في الحالتين كليهما، كانت والدتي أقل اهتماما بتعليمي تعاليم الدين ومعنى أذان العشاء، من تعليمي جدول الضرب.

لكن على الرغم من علمانية والدتي المعلنة، إلا أنها كانت أكثر امرأة روحانية عرفتها. فقد امتلكت دافعا غريزيا لا يجيد للطيبة والخير والحب، وقضت معظم حياتها تتصرف وفقا لتلك الغريزة، حتى لو سببت الضرر لها. ودون مساعدة النصوص الدينية أو السلطات المرجعية الخارجية، عملت بقوة ودأب على غرس القيم التي يتعلمها العديد من الأطفال الأمريكيين في مدارس الأحد داخلي: الصدق والأمانة والتعاطف مع الآخرين والانضباط وتأخير الإشباع والجد والاجتهاد. كان يغضبها الفقر والظلم، وتزدري أولئك الذين لا يباليون بهما.

والأهم أنها امتلكت إحساسا راسخا بالتساؤل والدهشة، واحتراما للحياة وطبيعتها الثمينة والزائلة، بحيث يمكن وصفها بأنها مؤمنة. خلال اليوم، قد تشاهد لوحة فنية، أو تقرأ بيتا من الشعر، أو تسمع معزوفة موسيقية، فأرى الدموع تترقرق في عينيها. في بعض الأحيان، حين كبرت قليلا كانت توقظني في منتصف الليل لكي أحرق إلى القمر بمنظره الخلاب، أو تطلب مني أن أغلق عيني ونحن نسير معا في الغسق لنسمع حفيف الشجر. كانت تحب أن تأخذ أي طفل لتضعه في حضنها وتدغدغه أو تلعب معه أو تفحص يديه، لتلمس معجزة تكوين عظامه وعضلاته وبشرته، وتبهجها الحقائق التي تجدها هناك. كانت ترى أسراراً غامضة في كل مكان وتستمتع بغرابة الحياة.

حين أسترجع الماضي بالطبع، أفهم مدى عمق التأثير الذي مارسه روحها في نفسي - كيف أعالتني ورعتني على الرغم من غياب الأب عن المنزل، وكيف أنقذتني من أخطار وصعوبات فترة المراهقة، وكيف أرشدتني، بأسلوب غير مرئي، إلى السبيل الذي اتخذته في نهاية المطاف. ربما ألهب والدي مطامحي الضارية - عبر معرفتي بإنجازاته وإخفاقاته، ورغبتني المكتومة بالفوز بحبه، واستيائي منه وغضبي عليه. لكن إيمان والدتي الجوهري، في طيبة وفضيلة الناس وفي القيمة النهائية لهذه الحياة العابرة التي منحت لكل منا، هو الذي وجه هذه الطموحات. البحث عن توكيد لقيمها هو الذي دفعني لدراسة الفلسفة السياسية، والسعي للعثور على لغة ومنظومات للعمل يمكن أن تساعد في بناء المجتمع وجعل العدالة حقيقة واقعية. والبحث عن تطبيق عملي لتلك القيم هو الباعث وراء قبولي العمل بعد التخرج في ميدان التنظيم الاجتماعي لمجموعة من الكنائس في شيكاغو كانت تحاول مغالبة البطالة والمخدرات واليأس.

سجلت في كتاب سابق الطرائق التي ساعدني عبرها عملي المبكر في شيكاغو على العبور إلى مرحلة الرجولة - كيف شد عملي مع رعاة الكنيسة والناس العاديين عزيمتي على دخول ميدان الحياة العامة، وكيف قوى هؤلاء هويتي العرقية وإيماني بقدرة الفرد العادي على أداء مهمات استثنائية. لكن تجاربي في شيكاغو أجبرتني أيضا على مواجهة معضلة لم تتمكن والدتي من إيجاد حل لها في حياتها: حقيقة عدم وجود مجتمع أو طائفة أو تقاليد مشتركة يمكن أن تركز عليها معتقداتي المتجذرة في كياني. المسيحيون الذين عملت معهم رأوا أنفسهم في؛ تأكد لهم أنني أعرف كتابهم وأقسامهم قيمهم وأرتل أناشيدهم. لكنهم استشعروا أن جزءا مني ظل مراقبا بعيدا ومنفصلا عنهم. أدركت أنه في غياب قالب لمعتقداتي، والتزام واضح بطائفة دينية معينة، سأبقى منفصلا وحرا بالطريقة التي كانت عليها والدتي، لكن وحيدا كما غدت وحيدة في نهاية المطاف.

هنالك ما هو أسوأ من مثل هذه الحرية. عاشت والدتي سعيدة حين عدت العالم وطنها، وجمعت حولها صديقات وأصدقاء على الدوام، وأشيعت حاجتها لوجود معنى من عملها وأولادها. في مثل هذه الحياة، كنت سأرضى أنا أيضا لولا بعض السمات

المعينة التي ميزت كنيسة السود تاريخيا، سمات ساعدتني على التخلي عن شكوكي واعتناق الديانة المسيحية.

لقد جذبتني قوة التراث الديني الأمريكي الأفريقي لتحفيز التغيير الاجتماعي. ونتيجة الضرورة، كان على كنيسة السود مساعدة الفرد برمته. ونادرا ما تمتعت بترف فصل الخلاص الفردي عن الخلاص الجمعي. وجب عليها أن تكون مركز المجتمع المحلي السياسي والاقتصادي والاجتماعي فضلاً عن الروحي؛ إذ فهمت بطريقة حميمية دعوة الإنجيل لإطعام الجائع وستر العريان وتحدي السلطات والقوى والإمارات. في تاريخ هذه الصراعات، تمكنت من رؤية الإيمان الديني بوصفه أكثر من مجرد مواساة الكليل والعاني أو توقي الموت؛ كان عاملا فاعلا وملموسا في العالم. في العمل اليومي للرجال والنساء الذين قابلتهم في الكنيسة، في قدرتهم على «صنع المستحيل»، والتشبث بالأمل والكرامة في أصعب الظروف، استطعت أن أرى «الكلمة» تتمظهر وتتبدى.

ولربما انطلقا من هذه المعرفة الحميمة بالمشقة، وتأسيس الدين على الكفاح، قدمت لي كنيسة السود رؤية ثانية: الإيمان الديني لا يعني أن الشكوك بعيدة عنك، أو أن تتخلى عن تشبثك بهذه الدنيا. فالعظة النمطية في كنيسة السود، قبل وقت طويل من بثها على شاشات محطات التلفزيون الدينية والتبشيرية، تعترف صراحة بأن جميع المسيحيين (ومنهم رعاة الكنيسة) لديهم القدر المتوقع ذاته من الطمع والاستياء والشهوة والغضب الذي يختبره الكل. فالأغنيات الإنجيلية وحركات الجسم والدموع والصراخ تشير جميعا إلى الانطلاق والتحرر والاعتراف بهذه العواطف والمشاعر وأخيرا توجيهها. في مجتمع السود، تبته الخطوط الفاصلة بين الخاطئ ومن حظي بالخلاص؛ فخطايا الذين حضروا إلى الكنيسة لا تختلف كثيرا عن خطايا الذين غابوا، ومن ثم يمكن الحديث عنها بروح الدعابة والإدانة في آن. أنت بحاجة للذهاب إلى الكنيسة لأنك جزء من هذا العالم، ولست منفصلا عنه؛ والفقراء والأغنياء والمذنبون والأتقياء، بحاجة إلى الإيمان بالمسيح لأنهم ارتكبوا ذنوبا يجب غسلها - لأنهم بشر وبحاجة إلى حليف في رحلتهم الصعبة، يسهل عليهم وعورة الطريق ويجعل السبل كلها مستقيمة.

بسبب هذا الفهم المكتشف حديثا - الالتزام الديني لا يتطلب مني وقف تفكيري النقدي، وفك الارتباط عن النضال في سبيل العدالة الاقتصادية والاجتماعية، أو التراجع والانسحاب من العالم الذي عرفته وأحبته - تمكنت أخيرا من دخول كنيسة الثالوث الأقدس المتحدة في أحد الأيام لأتعهد. كان ذلك خيارا لا كسفا؛ فالأسئلة داخلي لم تختف بشكل سحري. خضعت لإرادة الرب وكرست نفسي لاكتشاف حقيقته.

مناقشة الدين والإيمان نادرا ما تكون سمجة أو خرقاء داخل مجلس الشيوخ. إذ لا يسأل أحد عن ارتباطه الديني؛ ونادرا ما سمعت اسم الرب يستحضر خلال النقاش في القاعة. وقس المجلس رجل حكيم ودنيوي، عمل سابقا رئيسا لقساوسة البحرية، وهو أمريكي أفريقي نشأ في واحد من أعنف أحياء بلتيمور ويؤدي واجباته المحدودة - صلاة الصبح، وجلسات دراسة الإنجيل الطوعية، والمشورة الروحية لمن يريد - بروح ودودة وشمولية لا تستثني أو تقصي أحدا. صلاة صباح الأربعاء (مع الفطور) طوعية كليا، يشارك فيها أعضاء الحزبين، ومسكونية (تشمل أتباع جميع الكنائس) (مسؤول الحزب الجمهوري عن إقامتها هو العضو اليهودي نورم كولمان)؛ وأولئك الذين يختارون، طوعا، الحضور ينتقون فقرات من الكتاب المقدس ويناقشونها جماعيا. ولا ريب أن سماع ما يميز حديث حتى أكثر الأعضاء تدينا، مثل ريك سانتوروم أو سام براونباك أو توم كوبورن، من صدق وانفتاح وتواضع ودعابة، حين يتقاسمون مع البقية رحلاتهم الإيمانية الشخصية خلال هذه الجلسات، يغري المرء بالافتراض إن الدين يمارس في السياسة تأثيرا مفيدا وصحيا، ويكبح جماح المطامح الشخصية، ويقي من الرياح العاصفة لعناوين الأخبار والذرائع التبريرية والأنانية السياسية السائدة اليوم.

لكن خارج تخوم الرقة واللفظ والتهديب المحددة للمجلس، يمكن أن ينحدر أي نقاش حول الدين ودوره في السياسة إلى درجة أقل من اللطف والكياسة. خذ على سبيل المثال خصمي الجمهوري السفير السابق الان كيز في انتخابات عام 2004، الذي استخدم حجة جديدة لاجتذاب الناخبين في الأيام الأخيرة من الحملة.

أعلن السيد كيز: «المسيح ما كان ليصوت لمصلحة باراك أوباما لأنه قرر التصرف بطريقة لا يتخيل أحد أن المسيح سيتبعها»

لم تكن تلك المرة الأولى التي يدلي فيها السيد كيز بمثل هذه البيانات والتصريحات. فبعد أن أجبر خصمي الجمهوري الأساسي على الانسحاب في أعقاب افتضاح ملف طلاقه، قرر الحزب الجمهوري في إلينوي، بعد أن عجز عن اختيار مرشح محلي آخر، تجنيد السيد كيز لأداء المهمة. وحقيقة أن كيز أتى من مرييلاند، ولم يعيش أبداً في إلينوي، ولم يفز أبداً بانتخابات، وعدّه الكثيرون في الحزب الجمهوري مغروراً ومتعطرساً، لم تردع قيادة الحزب الجمهوري في إلينوي. أحد زملائي الجمهوريين في مجلس شيوخ الولاية قدم لي تفسيراً واضحاً وصريحاً لإستراتيجيتهم: «لدينا رجل محافظ أسود تخرج في هارفارد يقف ضد رجل ليبرالي أسود تخرج في هارفارد. ربما لن ينجح، لكن يستطيع على الأقل نزع تلك الهالة عن رأسك»

لم يكن السيد كيز يفتقر إلى الثقة بالنفس. فهو حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد، وترعاه جين كيركاترك، سفيرة الولايات المتحدة في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة (في عهد ريغان)، وحاز شهرة كبيرة لدى عامة الناس حين ترشح مرتين لمجلس الشيوخ عن مقعد ولاية مرييلاند، وخاض السباق مرتين للفوز بترشيح الحزب الجمهوري لرئاسة الولايات المتحدة. صحيح أنه هزم في السباقات الأربعة كلها، لكن هذه الهزائم لم تفعل شيئاً لتقليص شهرته لدى مؤيديه وأنصاره؛ فبرأيهم بدا الإخفاق الانتخابي إثباتاً يؤكد ولاءه الثابت والعنيد لمبادئ المحافظين.

لا شك في أن الرجل خطيب مفوه. إذ يستطيع أن يرتجل فورا خطبة عصماء خالية من الأخطاء النحوية عن أي موضوع. ويقدر خلالها أن يرفع مستوى حديثها وكلماتها النارية، فيهتز جسمه، ويتصبب العرق من حاجبيه، وتطعن أصابعه الهواء، ويعلو صوته الصداح ويرتجف من شدة التأثر وهو يدعو المؤمنين إلى محاربة قوى الشر.

لكن لسوء حظه، لم يتمكن لا ذكاؤه ولا بلاغته الخطائية من مغالبة بعض العيوب والنواقص التي يعانيتها كمرشح. فخلافا لمعظم السياسيين مثلا، لم يبذل السيد كيز أي جهد لإخفاء ما أعلنه بكل وضوح من تفوق أخلاقي وفكري. فمع وقفته المنتصبة وأسلوبه المسرحي الرسمي، ونظرته المحدقة وجفنيه السميكين، بدا مضجرا ومملا. وجمعت شخصيته صفات واعظ الكنيسة العنصرانية (التي تشدد على أهمية حلول الروح القدس) ووليام بوكلي.

إضافة إلى ذلك، أعادت تلك الثقة المفرطة بالنفس غرائز الرقابة الذاتية لديه التي أتاحت لمعظم الناس شق طريقهم في الحياة دون الدخول في مشاجرات مستمرة وتبادل اللكمات. اعتاد السيد كيز قول كل ما يخطر بباله، واستخدام المنطق العنيد لمتابعة أي فكرة تأتيه حتى النهاية. وبسبب الظروف غير المواتية الناجمة عن تأخره في بدء الحملة، والافتقار إلى التمويل الكافي، ووضع كسياسي غريب يترشح في غير منطقته، أزعج وأغضب خلال ثلاثة أشهر فقط الجميع. فقد دعا المثليين كلهم، ومنهم ابنة ديك تشيني، «الأنانيين المنغمسين في الملذات»، وألح على أن تبني زوجين من المثليين طفلا سيؤدي إلى سفاح الأقارب حتما. واتهم الصحفيين في الينوي بأنهم أداة «لأجندة معارضة الزواج ومناهضة الحياة» ثم اتهمني باتخاذ «موقف مالك العبيد» في دفاعي عن حقوق الإجهاض، ودعاني بـ «الأكاديمي الماركسي المتصلب» بسبب تأييدي للرعاية الصحية الشاملة وغيرها من البرامج الاجتماعية. وأضاف بأنني لست أمريكيا أفريقيا لأنني لست متحدرا من نسل العبيد. بل استعدى في إحدى المراحل الجمهوريين المحافظين الذين رشحوه أصلا لمقعد الينوي حين أوصى - سعيًا وراء أصوات السود ربما - بتعويضات على شكل إلغاء تام لضريبة الدخل على جميع السود المتحدرين من العبيد (علق موقع اليمين المتشدد في الينوي على الويب قائلاً: «هذه كارثة!») وأضاف «ماذا عن البيض؟!».

بكلمات أخرى، كان الان كيز خصما مثاليا؛ وكل ما كان علي فعله هو السكوت والبدء بالتخطيط لمراسم أداء القسم بعد فوزي الأكيد. ومع ذلك، ومع تقدم مسار الحملة الانتخابية، وجدت أنه يشغل تفكيري ويزعجني إلى حد لم أعده قبلا. وحين

كنا نلتقي خلال الحملة، كثيرا ما كنت أكبح دافعا يستحثني على الهزء به وتعبيره أو كسر رقبته. في إحدى المرات، عندما تقابلنا صدفة في موكب عيد الاستقلال الهندي، نكزته في صدره وأنا أناقشه، وكان مسلكا ذكوريا عداثيا لم أتبعه منذ أيام المدرسة الثانوية، لكن كاميرات وسائل الإعلام التقطته؛ وأعدت عرضه بالحركة البطيئة على شاشة التلفزيون في تلك الأمسية. وفي المناظرات الثلاث التي جرت بيننا قبل الانتخابات، كنت معقود اللسان، وحاد الطبع، ومتوترا على غير العادة - حقيقة فأتت على عامة الناس غالبا (نظرا لأن مصيره حسم عند هذه المرحلة)، لكنها سببت قدرا غير قليل من الغم والكرب لبعض أنصاري. وكانوا يسألونني: «لماذا تدع هذا الرجل يصدمك ويثير غضبك؟» فبرأيهم كان السيد كيز معتوها، ومتطرفا، ولا تستحق حججه حتى التفكير فيها.

ما لم يفهموه هو أنني كنت مضطرا لأخذ السيد كيز على محمل الجد. فقد زعم التحدث باسم ديني - ومع أنني لم أكن أحب ما يقوله، لكن وجب علي الاعتراف بأن لبعض آرائه الكثير من المؤيدين داخل الكنيسة المسيحية.

كانت حجته تسيير على النحو التالي: أسست أمريكا على مبدئين توأمين وهبهما الله هما الحرية والمسيحية. أما الإدارات الليبرالية المتعاقبة فقد اختطفت الحكومة الاتحادية وأجبرتها على خدمة المادية الملحدة ومن ثم اقتطعت - عبر القواعد التنظيمية، وبرامج الرعاية الاجتماعية الاشتراكية، وقوانين الأسلحة، والحضور الإلزامي في المدارس العامة، وضريبة الدخل («ضريبة العبيد» كما سماها السيد كيز) - أجزاء كبيرة من الحرية الفردية والقيم التقليدية. وساهم القضاة الليبراليون في هذا الانحطاط الأخلاقي عبر تشويه وتحريف التعديل الأول ليعني فصل الكنيسة عن الدولة، والموافقة على جميع أنماط السلوك المنحرف - خصوصا الإجهاض والمثلية - التي تهدد بتمير العائلة النووية. إذن، كان الجواب على التجديد الإحيائي في أمريكا بسيطا: يجب إعادة الدين عموما، والمسيحية على وجه الخصوص، إلى مكانه الطبيعي في مركز الحياة العامة والخاصة، ورفض وتدعيم القانون بالمبادئ والأركان الدينية، وتقييد سلطة الحكومة الاتحادية إلى حد بعيد فيما يتعلق بالتشريع في المجالات الموصوفة إما في الدستور أو في الوصايا الإلهية.

بكلمات أخرى، قدم الان كيز رؤية جوهرية لليمين الديني في هذا البلد، مجردة من جميع المحاذير أو التنازلات أو التسويات أو الاعتذارات. رؤية كانت ضمن شروطها الخاصة متمسقة ومترابطة كلياً، وزودت السيد كيز بيقين وطلاقة أنبياء العهد القديم. وفي حين وجدتها بسيطة إلى حد يكفي لدحض حججه الدستورية والسياسية، إلا أن قراءته للإنجيل أجبرتني على اتخاذ موقف الدفاع.

كان السيد كيز يقول: يدعي السيد أوباما إنه مسيحي لكنه يؤيد أسلوب حياة يدعوه الإنجيل منكراً.

يقول السيد أوباما إنه مسيحي لكنه يؤيد تدمير الحياة البريئة والمقدسة.

ماذا كان بمقدوري أن أرد؟ القراءة الحرفية المتزمتة للكتاب المقدس حماقة خرقاء؟ وعلى السيد كيز، الكاثوليكي، تجاهل تعاليم البابا؟ عندما رغبت عن الخوض في هذا المجال، قدمت الجواب الليبرالي المعتاد في مثل هذه المجادلات - نحن نعيش في مجتمع تعددي، ولا أستطيع فرض آرائي الدينية على الآخر، وأنتي أشرح نفسي لمقعد مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوي لا لمنصب قسيس إلينوي.

لكن حتى في هذه الحالة، لم يغب عن ذهني اتهام كيز الضمني - رجل تملؤني الشكوك، وإيماني الديني فاسد ومغشوش، ولست مسيحياً تقياً وحقيقياً.



بمعنى من المعاني، عبرت معضلي مع السيد كيز عن مشكل محير أوسع تواجهه الليبرالية عند الرد على اليمين الديني. فقد علمتنا التسامح مع معتقدات الناس الدينية، طالما لا تسبب ضرراً أو تتعدى على حق الآخر في اختلاف الدين. لكن هذا التسامح لم يختبر فيما يتعلق بمدى الرضى الذي تبلغه الطوائف والمجتمعات الدينية في تجنب الاتصال مع المجتمعات الأخرى وحصر الدين في إطار الضمير الفردي.

لكن نادراً ما مورس الدين في عزلة؛ فالدين المنظم، على الأقل، شأن عام. وقد يشعر المؤمنون بأن دينهم يفرض عليهم التبشير به ونشره بقدر ما يستطيعون. وأن الدولة العلمانية تروج قيماً تنتهك معتقداتهم انتهاكاً مباشراً. وربما يريدون من المجتمع الأوسع تصديق آرائهم وفرضها.

و حين يملك الذين يحركهم الدافع الديني الثقة الكافية بالنفس لتحقيق هذه الأهداف على المستوى السياسي، يضطرب الليبراليون وتتوتر أعصابهم. قد يحاول المسؤولون الذين يشغلون مناصب عامة تجنب الحديث عن القيم الدينية برمتها، خوفاً من الإساءة إلى الآخرين وجرح مشاعرهم، ويزعمون أن المبدأ الدستوري - بغض النظر عن معتقداتنا الشخصية - يقيد يدينا فيما يتعلق بقضايا متنوعة: من الإجهاض حتى الصلاة في المدارس (يبدو أن السياسيين الكاثوليك من جيل معين يلتزمون جانب الحذر على نحو خاص، ربما لأنهم أتوا من عصر تساءلت فيه شرائح واسعة من الأمريكيين هل سيتلقى جون كنيدي الأوامر من البابا في نهاية المطاف). بعض أهل اليسار (من غير المسؤولين) يمضون خطوة أبعد، حيث ينكرون الدين علنا بوصفه لا عقلانيا ولا متسامحا، ولذلك فهو خطر - ويلاحظون أن الخطاب الديني، بتشديده على الخلاص الفردي ومراقبة الأخلاق في المجال الخاص، قد زود المحافظين بالغطاء اللازم لتجاهل مسائل الأخلاق العامة، مثل الفقر أو مخالفة القانون من قبل الشركات.

قد تتجح مثل هذه الإستراتيجيات بالنسبة للتقدميين حين يكون الخصم الان كيز. لكن على المدى الطويل، أعتقد أننا نرتكب خطأ حين نخفق في الاعتراف بقوة تأثير الدين في حياة الشعب الأمريكي، ومن ثم نتفادى الحوار الجاد حول كيفية مصالحة الدين مع ديمقراطيتنا التعددية الحديثة.

بادئ ذي بدء، تلك سياسة سيئة. فهناك شرائح واسعة من المتدينين في أمريكا، تشمل أغلبية من الديمقراطيين. وحين نتخلى عن ميدان الحوار الديني - ونتجاهل الجدل حول معنى أن تكون مسيحيا أو مسلما أو يهوديا صالحا طيبا؛ وحين نناقش الدين من منظور أين يجب عدم ممارسته أو كيف، أي بالمعنى السلبي، بدلا من المعنى الإيجابي المتمثل في التزاماتنا تجاه بعضنا بعضا حسب تعاليمه؛ وحين نبتعد عن الاجتماعات الدينية والبرامج الدينية على افتراض أننا لن نلقى الترحيب - فإن غيرنا سوف يملأ الفراغ. وأولئك الذين يفعلون ذلك يرجح أن يكونوا من المؤمنين بأكثر الآراء انعزالا وضيقا في الأفق عن الدين، أو يستخدموا الدين وسيلة لتبرير الغايات الحزبية الضيقة.

والأهم أن انزعاج بعض التقدميين من أي إشارة تلميحية إلى التدين أعاقنا غالباً عن التصدي بفاعلية للقضايا المطروحة بتعابير أخلاقية. بعض المشكلات بلاغية خطابية: حين نشطب لغة الرضى الديني نخسر الصور التخيلية واللغة الاصطلاحية التي يفهم بواسطتها ملايين الأمريكيين مبادئهم الأخلاقية الشخصية والعدالة الاجتماعية. لنتصور مثلاً خطاب القسم الثاني الذي ألقاه لينكولن دون إشارة إلى «أحكام الرب» أو خطبة مارتن لوثر كينغ «لدي حلم» دون إشارة إلى «جميع عيال الله» فاستحضار هؤلاء للحقيقة السامية ساعد في إلهام ما بدا مستحيلاً ودفع الأمة لاعتناق فكرة المصير المشترك. وبالطبع، لا يحتكر الدين المنظم الفضيلة، ولا يحتاج المرء إلى أن يكون متديناً لإطلاق دعاوى أخلاقية أو مناشدة الصالح العام. لكن يجب ألا نتجنب إطلاق مثل هذه الدعاوى والمناشدات - أو نتخلى عن أي إشارة إلى تقاليدنا الدينية الثرة - في سبيل تقادي الإساءة للآخرين.

لكن فشلنا كتقدميين في الاستفادة من الركائز الأخلاقية للأمة لا ينحصر في إطار الخطاب البلاغي. فخشيتنا من التحول إلى «وعاظ» قد تدفعنا إلى التقليل من شأن الدور الذي تؤديه القيم والثقافة في التصدي لبعض من أكثر مشكلاتنا الاجتماعية إلحاحاً وأهمية.

على الرغم من كل شيء، ليست مشكلات الفقر والعنصرية، والعاطلين من العمل والمحرومين من الضمان والرعاية، مجرد مشكلات تقنية بحاجة إلى خطة مثالية من عشر نقاط. لكنها متجذرة في صميم اللامبالاة المجتمعية وعدم تعاطف الأفراد - الرغبة لدى أولئك المتربعين على قمة السلم الاجتماعي في الحفاظ على ثرائهم ومكانتهم مهما كان الثمن، إضافة إلى اليأس والدمار الذاتي لدى أولئك الرابضين في قاعه.

سوف يتطلب حل هذه المشكلات تغييرات في السياسة الحكومية؛ وسيطلب أيضاً تغييراً في المواقف والأذهان. أو من ضرورة إبعاد السلاح عن أحياء المدن الداخلية، وأعتقد أن على زعمائنا الوقوف في وجه جماعة الضغط المؤيدة لمصنعي الأسلحة. لكنني أعتقد أيضاً أننا نعاني من مشكلة أخلاقية، حين يطلق أحد أفراد عصابات

الشوارع النار بطريقة عشوائية على حشد من الناس لأنه شعر بأن أحدهم لم يعامله باحترام. نحن لسنا بحاجة إلى معاقبة ذلك الرجل على جريمته فقط، بل علينا الاعتراف بأن لديه مشكلة يعانيها، وأن البرامج الحكومية وحدها قد لا تتمكن من إصلاحه. أوّمن بالتطبيق الصارم لقوانيننا التي لا تميز بين المواطنين؛ وأن صحة الضمير والالتزام الحقيقي بالتنوع من كبار المسؤولين والمديرين يمكن أن يعطي نتائج سريعة لن تعطيها كتيبة من المحامين. أعتقد أن علينا توظيف مزيد من ضرائبنا الدولارية في تثقيف وتعليم البنات والصبيان الفقراء، وتزويدهم بالمعلومات المتعلقة بمنع الحمل من أجل منع حالات الحمل غير المرغوب فيها، وتخفيض معدلات الإجهاض، والمساعدة في ضمان رعاية كل طفل. لكنني أعتقد أيضا أن بمقدور الدين تدعيم وتقوية إحساس الفتاة بالذات، وإحساس الشاب بالمسؤولية، واحترام جميع الشبان والشابات للعلاقة الجنسية الحميمة.

أنا لا اقترح أن على كل تقدمي أن يقبض فوراً على اللغة الاصطلاحية الدينية أو أن نتخلى عن النضال في سبيل إحداث تغيير مؤسسي لصالح «آلاف النقاط المضيئة» فأنا أدرك كم تحولت مناشدة الفضيلة إلى أعذار تبريرية للعطالة والامتناع عن الفعل. فضلا عن ذلك، لا شيء أكثر وضوحاً من التعابير الدينية المزيفة والكاذبة - مثل السياسي الذي يزور كنيسة السود قرب موعد الانتخابات ويصفق (دون معرفة الإيقاع) مع جوقة المنشدين أو يورد بعض الشواهد من الإنجيل لإضافة بعض الإثارة إلى خطبته السياسية المملة.

فإذا تخلينا نحن التقدميون عن بعض من أحكامنا المتحيزة، نستطيع أن ندرك ونميز القيم التي يتقاسمها المتدينون والعلمانيون فيما يتعلق بالتوجه الأخلاقي والمادي لبلادنا. وندرك أيضاً أن الدعوة إلى التضحية في سبيل الجيل التالي، والحاجة إلى التفكير بلغة «أنت» لا مجرد «أنا»، تتردد أصداؤهما في الصلوات في مختلف كنائس البلاد. نحن بحاجة إلى أخذ الدين على محمل الجد وعدم الاكتفاء بمناهضة اليمين الديني، بل إشراك جميع المتدينين في المشروع الأكبر لتجديد وبعث أمريكا.

هنالك خطوات اتخذت في هذا الاتجاه. فرعاة الكنائس الكبرى، مثل ريك وارن وتي. دي. جيكر، يرصون الصفوف ويمارسون نفوذهم الهائل لمحاربة الإيدز، وتخفيف عبء الديون عن بلدان العالم الثالث، ووقف عمليات الإبادة العرقية في دارفور. أما «الإنجيليون التقدميون»، كما يسمون أنفسهم، مثل جيم واليس وتوني كامبولو، فيستخدمون تعاليم الإنجيل التي تحض على مساعدة الفقراء كوسيلة لحشد المسيحيين ضد تخفيضات ميزانية البرامج الاجتماعية وتفاقم الظلم وغياب المساواة. وترعى الكنائس الفردية المنتشرة في شتى أرجاء البلاد، مثل الكنيسة التي أنتمي إليها، برامج الرعاية النهارية، وبناء المراكز للمسنين، ومساعدة المذنبين السابقين على استعادة حياتهم الطبيعية.

لكن التأسيس على هذه الشراكات المؤقتة وغير المستقرة بين العالمين الديني والدينيوي/ العلماني، يحتاج إلى إنجاز مزيد من العمل. إذ يجب التصدي مباشرة للتوترات والشكوك المتأصلة لدى كل جانب من الجانبين، وسيحتاج كل منهما إلى قبول بعض القواعد الأساسية للتعاون.

أولى الخطوات وأصعبها على المسيحيين الإنجيليين هي الاعتراف بالدور الحاسم الذي لعبه البند التأسيسي في الدستور لا في تطوير ديمقراطيتنا فقط، بل في تشييط وتعزيز ممارستنا الدينية. فخلافا لمزاعم العديد من المنتمين إلى اليمين الديني، الذين يهاجمون وينتقدون فصل الكنيسة عن الدولة، فإن خلافهم ليس مع حفنة من القضاة الليبراليين في الستينيات. بل مع الذين صاغوا مسودات إعلان حقوق المواطنين وأسلاف أتباع الكنيسة الإنجيلية.

معظم الرواد من قادة الثورة الأمريكية، خصوصاً فرانكلين وجيفرسون، كانوا من المؤمنين بمذهب التألّيه الطبيعي، الذين لم يكتفوا بوضع عقائد الكنيسة المسيحية موضع الشك والمساءلة - رغم إيمانهم باللّه - بل الأركان المركزية للديانة المسيحية ذاتها أيضاً (ومنها ألوهة المسيح). وقدم جيفرسون وماديسون خصوصاً الحجة لصالح ما دعاه جيفرسون «حائط الفصل» بين الكنيسة والدولة، كوسيلة لحماية

الحرية الفردية في الاعتقاد والممارسة الدينيين، ووقاية الدولة من النزاعات الطائفية، والدفاع عن الدين المنظم أمام تعدي الدولة أو نفوذها المفرط.

وبالطبع، لم يوافق جميع الآباء المؤسسين؛ فقد قدم باتريك هنري وجون أدامز مثلاً تشكيلة متنوعة من الاقتراحات لاستخدام ذراع الدولة لترويج وتشجيع الدين. لكن في حين كان جيفرسون وماديسون هما من اقترحا قانون فيرجينيا التشريعي للحرية الدينية الذي سيصبح نموذجاً للتعديل الأول على البنود الدينية، إلا أن أتباع عصر الأنوار هم الذين أثبتوا أنهم المدافعون النافذون عن فصل الكنيسة عن الدولة.

بل إن المعمدانيين، من أمثال القس جون ليلاند وغيره من الإنجيليين، هم الذين وفروا التأييد الشعبي المطلوب لتصديق هذه البنود. فعلوا ذلك لأنهم كانوا لا منتمين؛ لأن أسلوبهم العبادي الحيوي اجتذب الطبقات الدنيا؛ لأنهم دعوا إلى المسيحية جميع القادمين، ومنهم العبيد، الذين هددوا النظام القائم؛ لأنهم لم يحترموا الرتبة والمزايا؛ لأنهم تعرضوا باستمرار لاضطهاد وازدراء الكنيسة الإنجيلية المهيمنة في الجنوب والطرق الرهبانية الأبرشية السائدة في الشمال. ولم يخشوا من أن أي دين ترعاه الدولة قد يضعف قدرتهم، كأقليات دينية، على ممارسة دينهم فقط؛ بل اعتقدوا أيضاً أن الحيوية الدينية لا بد أن تذوي وتחסر حين تفرضها أو ترعاها الدولة. وحسب تعبير القس ليلاند: «الخطأ وحده يحتاج إلى الحكومة لتدعمه؛ أما الصواب فيظل أفضل حالاً بدون دعمها»

نجحت صيغة جيفرسون وليلاند للحرية الدينية. ولم تتمكن أمريكا من تجنب أنواع النزاعات الدينية التي مازالت أفتها تجتاح العالم فقط، بل استمرت المؤسسات الدينية في الازدهار - وهي ظاهرة يعزوها بعض المراقبين بصورة مباشرة إلى غياب الكنيسة التي ترعاها الدولة، ومن ثم فهي مكافأة على التجريب والتطوعية الدينية. فضلاً عن ذلك، ونظراً لازدياد تنوع سكان أمريكا، لم تبلغ أخطار الطائفية مثل هذه الدرجة المرتفعة من قبل. وبغض النظر عما كنا عليه، لم نعد أمة مسيحية؛ نحن أمة يهودية ومسلمة وبوذية وهندوسية وملحدة.

لكن دعونا نفترض أننا مسيحيون وحسب. فأى نسخة من المسيحية نعلم التلاميذ في مدارسنا؟ نسخة جيمس دوبسون أم آل شابرون؟ وأي فقرات وآيات من الكتاب المقدس تستهدي بها سياستنا الخارجية؟ هل نعتمد سفر اللاويين الذي يبيح الرق ويحرم أكل المحار؟ وماذا عن سفر التثنية الذي يأمرك برجم طفلك إذا ضل عن صوابية الدين؟ أم هل نتشبه بالخطبة التي ألقاها المسيح أمام أتباعه وغيرهم - وهي فقرة راديكالية إلى حد أن وزارة الدفاع ذاتها لن تستطيع تطبيقها دون أن تتهار؟

يوصلنا ذلك كله إلى نقطة مختلفة - الأسلوب الذي يجب أن ترشد عبره آراؤنا الدينية الحوار العام وتهدي المسؤولين المنتخبين. من المؤكد أن العلمانيين يخطؤون حين يطلبون من المتدينين ترك دينهم أمام الباب قبل الدخول إلى المجال العام؛ إذ لم يكتف الدين بحث وتحفيز فريدريك دوغلاس وابراهام لينكولن ووليام جينغز بريان ودوروثي داي ومارتن لوثر كينغ - بل أغلبية الشخصيات الفاعلة العظيمة في التاريخ الأمريكي - فقط ولكن هؤلاء استخدموا مرارا وتكرارا اللغة الدينية لتقديم الحجة الدامغة على قضاياهم أيضا. ومن العبث عمليا القول إن على الرجال والنساء عدم حقن «مبادئهم الأخلاقية الشخصية» في الحوارات والمجادلات السياسية العمومية؛ وقانوننا هو بالتعريف تقنين للمبادئ الأخلاقية، ومعظمه مؤسس على التراث اليهودي المسيحي.

ما تتطلبه ديمقراطيتنا التداولية/ التشارورية التعددية أن يترجم المدفوعون بباحث الدين اهتماماتهم ومشاكلهم إلى قيم شمولية غير محصورة في إطار الدين. تتطلب أن تكون اقتراحاتهم خاضعة للحجة والحوار ومذعنة للعقل والمنطق. فإذا عارضتُ الإجهاض لأسباب دينية وسعيت لإصدار قانون يحظر الممارسة، لا يمكنني الإشارة إلى تعاليم الكنيسة أو استحضار إرادة الله وتوقع أن تقنع تلك الحجة الآخرين وتدفعهم إلى تأييدي. لكن إذا أردت منهم الإصغاء إلي فعلي أن أفسر لماذا ينتهك الإجهاض مبدأ يعتنقه أتباع جميع الديانات، ومنهم أولئك الذين لا يؤمنون بأي دين.

وفيما يتعلق بأولئك الذين يؤمنون بعصمة الكتاب المقدس، مثل الكثير من الإنجيليين، قد تبدو قواعد الاشتباك هذه مجرد مثال آخر على طغيان العالمين

العلماني والمادي على المقدس والروحي. لكن في الديمقراطية التعددية ليس لدينا أي خيار. فالدين والعقل، بالتعريف تقريبا، يشغلان في مجالين مختلفين ويشملان سبلا متباينة نحو تبين وتمييز الحقيقة. العقل، والعلم، يشملان المعارف المتراكمة اعتمادا على الوقائع الحقيقية التي يمكن لنا جميعا فهمها وإدراكها. أما الدين فيعتمد، خلافا لذلك، على الحقائق غير القابلة للإثبات عبر الفهم البشري العادي - «الإيمان بالغيب» وحين يصر مدرسو العلوم على تجاهل نظرية الخلق واستبعاد التصميم العاقل للكون، فهم لا يؤكدون أن المعرفة العلمية متفوقة على الرؤية الدينية. بل يلحون على أن كل سبيل للمعرفة يشمل قواعد مختلفة وأن هذه القواعد ليست قابلة للتبادل.

يصعب اعتبار السياسة علما، فهي لا تعتمد كثيرا على العقل والمنطق. في الديمقراطية التعددية، تنطبق التمايزات ذاتها. إذ تركز السياسة، مثل العلم، على قدرتنا على حث وإقناع بعضنا بعضا بالأهداف المشتركة اعتمادا على الواقع المشترك. فضلا عن أن السياسة (خلافا للعلم) تشمل التسويات والتنازلات، فهي فن الممكن. وعلى مستوى من المستويات الجوهرية، لا يسمح الدين بالتنازلات والتسويات. بل يصر بإلحاح على المستحيل. فإذا أمر الله، يجب على الأتباع الارتقاء إلى مستوى أمره، بغض النظر عن النتائج. وتأسيس حياة الفرد على مثل هذه الالتزامات التي لا تقبل التسويات قد يكون أمرا ساميا وعظيما؛ لكن رسم سياستنا استنادا إلى هذه الالتزامات سيكون أمرا محضوفا بالخطر.

قصة إبراهيم واسحق تقدم مثلا بسيطا لكن معبرا. فوفقا للكتاب المقدس، أمر الله إبراهيم بتقديم ابنه الحبيب الوحيد اسحق قربانا. أطاع إبراهيم الأمر الرباني دون تردد، فأخذ ابنه إلى قمة الجبل ووضع على المذبح ورفع سكينه واستعد لتنفيذ الأمر.

نعرف بالطبع الخاتمة السعيدة - أرسل الله ملكا للتدخل في آخر لحظة. ونجح إبراهيم في اختبار الولاء والإخلاص. وأصبح نموذجا لطاعة الله، وكوفئ على إيمانه الراسخ عبر أجيال المستقبل. ومع ذلك، فإن من الإنصاف القول لورأى أي منا إبراهيم في القرن الحادي والعشرين يرفع سكينه على طفله فوق سطح منزله

لاستدعى الشرطة على الفور؛ وسوف ننزله من السطح؛ وحتى لو ترك السكين في اللحظة الأخيرة سوف يأخذ «قسم خدمات الطفل والأسرة» اسحق منه ويتهمه بإساءة معاملة الأطفال. سوف نفضل ذلك لأن الله لا يكشف عن نفسه أو عن ملائكته أمامنا. نحن لا نسمع ما سمعه إبراهيم، ولا نرى ما رآه، مهما كان صادقا. ولذلك، فإن أفضل ما نفعله هو التصرف وفقا للمعايير التي يمكن لنا جميعا معرفتها، وفهم حقيقة أن جزءا مما نعرف أنه صدق، كأفراد أو طوائف دينية، لا يراه غيرنا بوصفه كذلك.

أخيرا، تتطلب أي مصالحة بين الدين والديمقراطية التعددية بعض القدرة على الحكم على الأهمية النسبية للأشياء. وهذا ليس غريبا كليا عن العقيدة الدينية؛ فحتى من يؤكدون عصمة الكتاب المقدس يميزون بين الأحكام والأوامر المقدسة، اعتمادا على الشعور بأن بعض الفقرات والآيات - مثل الوصايا العشر أو الاعتقاد بألوهية المسيح - لا تحتمل التأويل وتحظى بأهمية مركزية للدين المسيحي، في حين أن لغيرها مدلولات ثقافية ويمكن تعديلها وتأويلها لتناسب الحياة الحديثة. يفهم الشعب الأمريكي ذلك بالفريزة والبداهة، ولهذا السبب يمارس غالبية الكاثوليك تحديد النسل، ويعارض بعض مناهضي زواج المثليين إجراء تعديل دستوري يحظره. ليس على الزعامة الدينية قبول مثل هذه الحكمة في مشاورة رعيته، لكن عليها الاعتراف بها في سياستها.

إذا كانت المقدرة على الحكم على الأهمية النسبية للأشياء ترشد النشاطية المسيحية، فيجب أن تهدي أيضا أولئك الذين يحرسون الحدود الفاصلة بين الكنيسة والدولة. إذ لا يعد كل ذكر لله أمام الملاء خرقا في جدار الفصل؛ ومثلما أقرت المحكمة العليا وأصابت، فالسياق أمر مهم. ومن المشكوك فيه أن يشعر الأطفال الذين يتلون «عهد الولاء» بالتمتع كعاقبة للنطق بعبارة «تحت مظلة الرب»؛ لم أشعر أنا بذلك. إن السماح باستخدام المباني المدرسية للصلاة الطوعية يجب ألا يمثل تهديدا، تماما كما لا يمثل استخدامها من جانب النادي الجمهوري للمدارس الثانوية تهديدا للديمقراطيين. ويمكن تصور إقامة بعض البرامج المرتكزة على الدين - لمساعدة المذنبين السابقين أو المدمنين - التي تعرض طريقة مؤثرة وفريدة لحل المشكلات ومن ثم تقدم الدعم المناسب.

هذه المبادئ العريضة لمناقشة الدين ضمن النظام الديمقراطي ليست شمولية. على سبيل المثال، سيكون من المفيد إذا استطاعت المجادلات والمناظرات المتعلقة بالأمر التي تلامس الدين - مثلما هي الحال في جميع المجادلات الديمقراطية - مقاومة إغراء اتهام المخالفين في الرأي بسوء النية والانحراف عن جادة الدين. وعند الحكم على مدى إفتاع مختلف المزايم الأخلاقية، يجب علينا البحث عن التساوق في كيفية تطبيقها: كقاعدة عامة، أنا أكثر ميلا إلى الإصغاء إلى أولئك الذين تثير غضبهم مشكلة التشرد الشائنة مثلما تفعل أفلام الفيديو الإباحية. نحن بحاجة إلى الاعتراف بأن حججنا ومجادلاتنا تكون أحيانا أقل اتصالا بما هو حق وصواب منها بمن يملك القول الفصل في نهاية المطاف - هل نحتاج إلى ذراع الدولة القاهرة لتطبيق قيمنا، أم من الأفضل ترك الموضوع للضمير الفردي والمعايير المتطورة.

حتى التطبيق الصارم لهذه المبادئ لن يحل بالطبع جميع المشكلات والصراعات. ورغبة الكثيرين من معارضي الإجهاض في استثناء حالات الإغتصاب وسفاح القربى تشير إلى استعداد لتعديل المبدأ لاعتبارات عملية؛ واستعداد أشد مؤيدي إباحة الإجهاض حماسا للقبول ببعض القيود على عمليات الإجهاض في المراحل المتأخرة من الحمل يدل على اعتراف بأن الجنين أكثر من مجرد جزء من الجسم وأن للمجتمع مصلحة في الاهتمام بتطوره ونمائه. ومع ذلك، هنالك نقطة لا يستحيل عندها التلاقي بين أولئك الذين يعتقدون أن الحياة تبدأ من الحمل وأولئك الذين يعدون الجنين استطلاة وامتدادا لجسد الأم حتى ولادته. أفضل ما نفعه عند تلك النقطة هو ضمان أن يقرر الإقتاع لا العنف أو الترهيب النتيجة السياسية - وأن نعيد تركيز بعض قدراتنا، على الأقل، على تقليص عدد حالات الحمل غير المرغوب فيها عبر التثقيف والتعليم (وترويج التعفف) ومنع الحمل والتبني أو أي إستراتيجيات أخرى تحظى بدعم عريض وتأييد واسع وثبت نجاحها.

بالنسبة للعديد من المسيحيين الملتزمين، ينطبق على زواج المثليين العجز ذاته عن التسوية وتقديم التنازلات. أجد مثل هذا الموقف مقلقا، خصوصا في مجتمع يمارس فيه الرجال والنساء المسيحيون علاقات الزنا غير الشرعية وغيرها من الانتهاكات

بحق دينهم دون التعرض للعقوبات المدنية. وكثيراً ما جلست في الكنيسة وسمعت راعيها يتهجم على المثليين ويهزأ بهم ويسخر منهم — كأن يصرخ بأعلى صوته حين لا تسير العظة على ما يرام: «في البدء كان آدم وحواء، لا آدم وستيف!» أعتقد أن بمقدور المجتمع الأمريكي أن يختار نحت مكان خاص لاتحاد الرجل والمرأة كوحدة لرعاية الأطفال الشائعة في كل ثقافة. لست مستعداً لقبول أن تحرم الدولة المواطنين الأمريكيين من اتحاد مدني يمنح حقوقاً متساوية فيما يتعلق بأمور أساسية مثل زيارة المستشفى أو الضمان الصحي لمجرد أن الشخصين الذين يتبادلان الحب من الجنس ذاته — ولا بقبول قراءة للكتاب المقدس تعد عبارة غامضة الدلالة باللغة اللاتينية أكثر تحديداً للمسيحية من عظة المسيح على الجبل.

لربما أعاني من حساسية تجاه هذه القضية لأنني خبرت الألم الناجم عن إهمالي. فقبل انتخابي، وفي خضم المناظرات والمجادلات مع السيد كيز، تلقيت رسالة هاتفية من واحدة من أقوى أنصاري. كانت صاحبة منشأة تجارية صغيرة، وأما كريمة، وشخصية عميقة التفكير. وهي أيضاً شاذة جمعتها علاقة حميمة بشريكتها طوال العقد الماضي.

عرفتُ عندما قررت تأييدي أنني أعارض الزواج بين أفراد الجنس الواحد، وسمعتني أقدم الحجة على أن تشديد التركيز على الزواج، في غياب أي إجماع هادف، يشته الانتباه عن الإجراءات الأخرى الممكن تحقيقها لمنع التمييز ضد المثليين والشاذات جنسياً. واستحنت رسالتها الهاتفية في هذه الحالة بالذات مقابلة إذاعية أجريتها وأشرت فيها إلى تقاليدي الدينية في تفسير موقفي من القضية. أخبرتني أن ملاحظاتي جرحت مشاعرهما؛ وأحست أن إقحام الدين في المعادلة يعني في دلالته اتهامها، وآخرين مثلها، بسوء الخلق والانحراف.

شعرت بالحزن، وأخبرتتها بذلك. وحين تحدثت إليها تذكرت أنه بغض النظر عن زعم المسيحيين المعارضين للمثلية بأنهم يكرهون الذنب ويحبون المذنب، فإن مثل هذا الحكم يؤلم الأخيار والطيبين — والذين هم أشد إخلاصاً لرسالة المسيح من الذين يوجهون الإدانات إليهم. تذكرت أيضاً أن من واجبي، لا كمسؤول منتخب في مجتمع

تعددي وحسب بل كمسيحي أيضاً، البقاء منفتحاً على احتمال أن تكون معارضتي لزواج المثليين خاطئة، مثلما لا أستطيع زعم العصمة من الزلزل في تأييدي لحقوق الإجهاض. يجب أن أعتز باحتمال تأثري بأفة الأحكام المسبقة والمتحيزة التي يتبناها المجتمع وينسبها إلى الله؛ وأن دعوة المسيح إلى أن يحب أحدنا الآخر تتطلب استنتاجات وترتيبات مختلفة؛ ولربما أبدو في السنوات التالية على الجانب الخطأ من التاريخ. لا أعتقد أن مثل هذه الشكوك تجعلني مسيحياً طالحاً. بل تجعلني إنساناً، محدود القدرات على فهم غاية الله وغرضه، ولذلك فهو عرضة للوقوع في الخطأ وارتكاب المعصية. حين أقرأ الكتاب المقدس، لا أجده نصاً جامداً سكونياً، بل نصاً حياً، وأشعر أن علي أن أبقى منفتحاً على أي كشف ملهم جديد - بغض النظر هل أتى من صديقة شاذة أو من طبيب يعارض الإجهاض.

هذا لا يعني القول أنني غير متشبهت بديني. هنالك بعض الأمور التي أثق بها ثقة مطلقة - القاعدة الذهبية (عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك)، الحاجة إلى مناهضة القسوة بأشكالها كافة، قيمة الحب والإحسان والخير، والتواضع، واللباقة واللفظ.

هذه المعتقدات اتضحت وبانت لي قبل سنتين حين سافرت بالطائرة إلى برمنغهام (بولاية الاباما) لإلقاء خطبة في معهد الحقوق المدنية. يقع المعهد في الجهة المقابلة للكنيسة المعمدانية، حيث قتل عام 1963 أربع فتيات - إدي ماي كولينز، وكارول روبرتسون، وسينثيا ويسلي، ودينيس مكثير - بانفجار قنبلة وضعها غلاة العنصريين البيض عند حضورهن الدرس الديني يوم الأحد، وقبل إلقاء الخطبة انتهزت الفرصة لزيارة الكنيسة. استقبلني راعي الكنيسة الشاب وعدد من الشماسة عند الباب وشاهدت آثار الشظايا على الجدار، والساعة في القسم الخلفي من الكنيسة التي ما زالت متوقفة عند الساعة 10:22 صباحاً. تفحصت صور البنات الأربع.

بعد الجولة، أمسكنا أنا وراعي الكنيسة والشماسة أيدينا وتلوننا صلاة. ثم تركوني لأجلس في أحد المقاعد وألمم أفكاري. تساءلت عما حدث لآباء وأمهات هؤلاء الفتيات قبل أربعين عاماً، بعد أن اختطفهن من الحياة هذا العمل الوحشي الذي كان عشوائياً

ولثيماً وحقوداً في أن؟ كيف تحملوا الألم والحزن والتبريح لو لم يتأكد لهم وجود هدف يكمن وراء جريمة قتل بناتهم، وأن ثمة معنى يمكن استخلاصه من هذه الخسارة التي لا تعوض؟ شاهد هؤلاء الآباء والأمهات المعزين يتدفقون من جميع أرجاء البلاد، وليندون جونسون يعلن على التلفزيون الوطني أن الوقت قد حان، والكونغرس يصدر في نهاية المطاف قانون الحقوق المدنية لعام 1964. أكد لهم الأصدقاء والغرباء على حد سواء أن بناتهم لم يمتن عبثاً - وأنهن أيقظن ضمير أمة وساعدن في تحرير شعب؛ وأن القنبلة قد فجرت سداً لتتدفق العدالة كالسيل الجارف والفضيلة كالشلال الهادر. لكن هل كانت حتى هذه المعرفة كافية لمواساتهم، وإبعادهم عن حافة الجنون وتهدة غضبهم الدائم العارم - لولا ثقتهم أيضاً بأن أطفالهم انتقلوا إلى مكان أفضل؟

تحولت أفكاري إلى أمي وأيامها الأخيرة، بعد أن انتشر السرطان في جسمها كله، وتبين أن لا أمل لها بالشفاء. كانت قد اعترفت أمامي خلال مرضها بأنها ليست مستعدة للموت؛ لأنه فاجأها وأخذها على حين غرة، كأنما العالم المادي الذي أحبته بهذا القدر قد انقلب عليها، وخانها، وغدر بها. ومع أنها حاربت بشجاعة، وتحملت الألم والعلاج الكيماوي برضى ورحابة صدر حتى النهاية، إلا أنني رأيت أكثر من مرة نظرة خوف في عينيها. خوف يتجاوز الخشية من الألم أو من المجهول، ما أربعها الشعور بالوحدة عندما يأتي الموت، كما أظن - فكرة أنها في هذه الرحلة الأخيرة، في هذه المغامرة الأخيرة، لن تجد أحداً تتقاسم تجربتها معه، أو يعجب معها بقدرة الجسم على إيلاء نفسه، أو يضحك على عبثية الحياة الصارخة حين يبدأ الشعر بالتساقط وتغلق الغدد اللعابية.

حملت هذه الأفكار معي حين غادرت الكنيسة وألقيت خطبتي. في وقت متأخر من تلك الليلة، بعد عودتي إلى شيكاغو، جلست إلى مائدة العشاء، أراقب ماليا وساشا تضحكان وتتشاجران، وترفضان أكل طبق الفاصولياء، قبل أن تطاردهما أمهما إلى الطابق العلوي. وحين كنت وحيداً في المطبخ أغسل الأطباق، تخيلت البنيتين تكبران، وشعرت بالألم الذي يحسه كل أب في وقت ما، تلك الرغبة في اقتناص كل لحظة من حضور طفلك والتشبث بها - تسجيل كل حركة وإيماءة، والاحتفاظ إلى الأبد بمنظر

خصلات شعره والإحساس بلمسة أصابعه. تذكرت ساشا وهي تسألني ذات مرة عما يحدث لنا حين نموت، وقالت دون مبالاة: «لا أريد أن أموت يا أبي»، فعانقتها وقلت: «أمامك طريق طويل طويل قبل أن يقلقك هذا الأمر»، وبدا أن الجواب قد أرضاها. تساءلت هل كان يجب أن أخبرها الحقيقة، وأنتي لست واثقا مما يحدث حين نموت، مثلما لا أعرف أين تذهب الروح أو ماذا كان يوجد قبل الانفجار الكبير. لكن حين صعدت الدرج عرفت ما كنت آمل به - أن تكون أُمي مع أولئك الفتيات الأربع، وقادرة بطريقة ما على عناقهن، والاستمتاع مع أرواحهن.

عرفت أنني حين وضعت طفلي في فراشه لتناما نوما هائنا مريحا، فهمت شيئا عن السماء والجنان.

